خمس سنوات فى مصر

ليس من السهل على الإنسان دائماً أن يبعث فى نفسه ذكريات قديمة قد اندثرت أو كادت ، وزالت وقدتها وحرارتها . . . وهذه حقيقة كلما تقدم الزمن بالذكرى أو اتسعت بينهما الثغرة كان تأثيرها على النفس أضعف وأوهى . وكلما كانت المدة أقصر والثغرة أصغر ، كان الأثر أقوى مفعولا وأشد بروزاً . . . أقول هذا حينما أجرد نفسى من أثر الحاضر وأعيش فى الماضى — وإن كنت فى نفس الوقت لا أهتدى إلى وجود فواصل حقيقية بين ما يسمى بالماضى والحاضر والمستقبل ؛ فما هذه الرموز الوهمية التى أتى بها الإنسان ليضع هذه الفروق ويكون ذلك التقسيم فى الحقيقة إلا وحدة واحدة لا تتجزأ ولا ينفصل بعضها عن بعض فما الحاضر إلا امتداد للماضى وما المستقبل إلا امتداد للحاضر وما الماضى والحاضر والمستقبل إلا سلسلة واحدة لا تعرف لها بداية أو نهاية — على أن هذا لا دخل له فى موضوعنا ولا صلة . فلنهمل ذلك ولنحصر تفكيرنا فى هذه السنوات الخمس . . خمس سنوات كاملة !! إنها فى الحقيقة فترة طويلة إذا ما قيست إلى عمر الإنسان ؛ وأيام شبابه على الخصوص — وأنا لا أحاول طبعاً أن أقيسها إلى عمرى فإن هذا غيب عند الله — ولكننى مع ذلك لا أستطيع أن أتصورها كذلك إلا إذا وضعت أمام مخيلتى طفلا قد بلغ من العمر خمس سنوات فهو يركض ويتكلم ويدرك . . حينئذ فقط أصل إلى إدراك الحقيقة المرة بأن هذه فترة عظيمة حقاً ، فتتملكنى رهبة وهيبة أمام هذه الحقيقة الماثلة . . وأنسى نفسى وأنسى ما حولى وأعيش فى عالم الماضى أستعيد أيامه أمام خاطرى وأستعرض حوادثه فيبدو لى بعضها غامضا غير واضح المعالم يظهر ثم لا يلبث أن يختفى عن مخيلتى وإذا هو فى عالم النسيان . . ويظهر لى بعضها بشكل أوضح وهيأة أجلى لأن تأثيرها على فيما يبدو كان عظيما فلم تستطع يد الزمان أن تمتد إليها بالفناء والنسيان . . . وتقفز فى ذهنى إلى هذه اللحظة بالذات إحدى هذه الذكريات وتحتل المكان الأول من تفكيرى وتطرد كل ما عداها من ذكريات وينشغل بها بالى فلا ألتفت إلى غيرها ، ولا عجب فى ذلك فهى تتعلق بمستقبلى . . . وكنت حينئذ فى السنة الثالثة الثانوية وقد دخل فى روعى أن أهيىء نفسى منذ تلك اللحظة إلى الالتحاق بكلية الطب ولكنى — وسأقولها بصراحة — كنت متأثراً بما يدور حولى من آراء . . (ولم

ماقولك فى الرحمن على العرش استوى ؟ فأجابها جواب الإمام مالك المشهور وهو « الاستواء غير مجهول . والكيف غير معقول . والإيمان به واجب . والسؤال عنه بدعة » فسألته على الفور عن رأيه فى محمد بن عبدالوهاب فقال : إن الذين يأتوننا من الرياض يثنون عليه كثيراً . على أن الكويتيين لا يكرهون هذا الإمام مطلقا . ولكنهم غير متعصبين له ولدعوته والشيخ يرى فيه رأى قومه لا أكثر . .

ورحل بعدهم الشيخ الشاب أحمد بن الشيخ خالد العدسانى . ارتحل بصحبة الشيخ يوسف بن عيسى . مد الله فى حياته . إلى الأحساء فقرأ هناك . ورحل إلى بومباى الهند . فأتقن فن إصلاح الساعات . وأثار ذكاؤه إعجاب الكويتيين هناك فعملوا على تسفيره إلى مصر فسافر من الهند سنة ١٣٢٤ هـ قاصداً مصر ومكث فيها مدة غير أنه لم تعجبه النظم التعليمية التى كانت سائدة فى دور العلم هناك فكر راجعا من مصر إلى الحجاز . ودرس عند أحد الشيوخ ليزيد تحصيله غير أنه لم يلبث أن أصابه ألم ببطنه اضطره إلى السفر إلى أهله . فارتحل وهو مريض يعانى آلام البطن فوافته المنون بعد وصوله بيوم واحد رحمه الله . وكان ذلك حوالى سنة ١٣٢٦ هـ ؟

يكن منى ذلك عن رغبة صادقة أو ميل طبيعى فإننى لا أتحمل رؤية مريض فكيف أقف نفسى على العلاج والتطبيب!) بأن المستقبل للطب ، وهم فى الغالب يقصدون بذلك ـ المادة ـ بينما هنالك ما هو أهم مما يتعلق بالميول الأصلية نفسها أو بالمستقبل أو السعادة التى يجنونها من وراء اختيارهم فى مستقبل الأيام . وقد اقتنعت فعلا بفكرتهم وأخذت بها : ولكن ما إن برزت الحقيقة أمامى سافرة حتى أذعنت لها واستسلمت مختاراً طائعاً . . . كنت أحدث نفسى : « هل أنت حقيقة تعنى ما تريد وهل تحب أن تحترف مهنة الطب فى مقتبل الأيام وهل ستخلص لهذه المهنة لو كان الأمر كذلك ؟ . تكلم بصراحة فإنك أمام نفسك وإذا جاز لك أن تغالط غيرك وتخدعه فإنك لا تستطيع أن تكذب على نفسك وتغالطها بأى حال من الأحوال ... ثم إن المسألة أخطر مما تتصور فهى تتعلق بمستقبلك الذى تبنى عليه سعادتك وتكون شخصيتك ، وهذا أمر يخصك أنت وحدك . . . فهل جاد أنت فيما تنوى أو أن هناك أسباباً أخرى أغرتك . . وأنت بعد مخير فيما تختار مادمت صادقا فيما تروم مخلصاً فيما تنوى . . . ولكن يخيل لى أن الأمر بالعكس ، والرأى رأيك أولا وأخيراً فانظر ماذا ترى . . » وأعترف بأننى شعرت بالإحراج أمام هذه الحجة القوية ، ولم أستطع أن أنكر أن الباعث الوحيد الذى تأثرت به هو المادة دون أى باعث آخر سواه وقلت لنفسى:

إنك يا هذا مخدوع فلم تسعد المادة فى يوم من الأيام على وجه البسيطة مخلوقاً وإن كان الإنسان يصر بالرغم من من ذلك فى أن يعتبرها السبيل الوحيد المؤدى إلى السعادة الحقة . . . وإذا كان هذا هو كل ما تتمناه فى حياتك فعلا فإن الأمر أسهل مما تظن فقم من ساعتك وأرح نفسك من مشقة الدرس وتعب التحصيل واتبع الوسائل الناجعة التى أتبعها غيرك فى جمع المال والتوصل إلى الثراء فلست بأقل منهم ذكاء ولا دهاء أو حسن تدبير . . أو غش واخدع وراوغ وتملق وافعل كل ما يمهد لك سبيل الغنى والاثراء إذا كنت حقاً تعنى ما تقول . . . » ولم يتحمل ضميرى كل هذا التوبيخ طبعاً فعدلت عن عزمى ورضخت لرغبتى وميولى الطبيعية وأمرى لله ! . . .

وما انتهى الحديث إلى نفسى إلى هذا الحد حتى أعود إلى التفكير مرة أخرى فى هذه السنوات الخمس التى فاتت من عمرى وليس إلى عودتها من سبيل فيتمثل لى شبحها هائلا كالعملاق مخيفا كمارد من الجن وإذا بحسرة صارخة يرن صداها بين الضلوع تقطع على سبيل التفكير وتغير مجراه . . . هذه الحسرة المكتومة كثيراً ما تعاودنى بين وقت وآخر وتمسك بتلابيب ضميرى تناقشنى الحساب وتزن أعمالى السالفة بميزانها الدقيق فإذا — ويا للأسف — كفة الفشل دائما راجحة وكفة النجاح شائلة فيتعكر صفوى وينطفىء بارق الأمل . . . ولكننى مع ذلك ألح على وتعيرنى وتتهمنى بالتقصير والإهمال فأحس بشعور ثقيل ولكنى لا أستطيع التخلص منه على أى حال . . . هل قمت بمهمتى فى هذه الحياة على خير الوجوه وهل حققت بعضا من كثير من الآمال التى منيت بها نفسى وكانت طيورها تحوم حول رأسى تبشرنى بالمستقبل الباسم الموعود؟ كلما استعرضت هذه الخواطر فى رأسى أبحث عن الحل الشافى الذى قد أحس فيه بعضا من الراحة القلبية . كانت النتيجة مخيبة وكان الجواب واحداً لا يتغير « كلا . كلا . . . » حتى أصبح عندى يقينا ثابتا بأن هذا الجواب البغيض سيبقى على هذه الصورة إلى أبد الآبدين ولا أمل أن يكون — فى يوم من الأيام — كما أحب أن يكون « أجل . . أجل . . » وتزعجنى هذه الأفكار السوداء وتبلبل خاطرى فأصحو من غفوتى وأتخلص من كابوس الماضى المخيف وأعود إلى الحاضر مرة أخرى ، فأطل من النافذة لأتأمل الطبيعة وأخفف من حدة عواطفى وجيشان نفسى ، وأنظر إلى الدنيا فإذا هى مظلمة كئيبة وإذا السماء ملبدة بغيوم داكنة كثيفة تمنع عنى زرقتها وصفاءها كما يحجب (المستقبل) عنى أحواله وحوادثه . . . وما تدور هذه الكلمة (المستقبل) فى خاطرى حتى تهاجمنى جيوش التكهنات والتخمينات ، ولكنى لا أحب أن أذكر عنها شيئا . . . . ومهما يكن من أمر فإن الأمر بيد الله والله رؤوف بالعباد.

على زكريا الأنصارى